

لم يحل الصدام فيما بين دولتي المماليك في مصر والشام والإيلخانيين (مغول فارس) من أن يشتمل الجهازان الإداري والعسكري للمماليك على عناصر مغولية من شتي أجناسهم أو الخاضعين لسلطانهم ، المندمجين فيهم في دولتهم الأولى والثانية – وقد تعددت طرق ومنافذ وصولهم إليها ، سواء من أسواق وتجار النخاسة – حيث اعتاد أهل التركستان وبلاد القفجاق لضيق المعاش وقشف الحياة – بيع أبناءهم : بنين وبنات – أو تخطفوا صغاراً من الطرقات في مواطنهم الأصلية ويبيعوا لتجار النخاسة الجالبيين لهم إلى مصر والشام فأقبل على شرائهم وتنشئتهم السلاطين والأمراء ، وتسروا بالبنات أو زوجوهن بمماليكهم ، أو نتيجة للسبي والأسر في الغارات والمعارك الحربية فقد كان زين الدين كتيبغا – المتسلطن فيما بعد – من سبي المنصور قلاوون في وقعة حمص ، كما سبي وأسر بيبرس عدداً لا أو بالوفود إليهم في هجرات جماعية وفردية فراراً من الجوائح والطواعين ، في وباء الشرق سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠م] حيث وفدت إلى القاهرة أعداد كبيرة منهم ، وأوكتاي . بغية اضطراد الفتوحات بتوسيع كل منهم لنطاق مملكته فيما جاورها مما لم تخترقه القوات المغولية – أو فراراً من الاضطهاد الديني بعدما أقدم محمود غازان [أو قازان على اعتناق الإسلام ، واعتباره الديانة الرسمية للبلاد ، وهدم الكنائس والمعابد ، ويُلاحظ أن سلاطين المماليك – وأصولهم مقاربة لبيئات وأجناس هؤلاء الوافدين – لم يتعصبوا الجنس على حساب أجناس أخرى في تكوين نظامهم العسكري أو الإداري ، بل كان ميله لمن يتخيل فيه النجاة كائناً من كان . فكانت [مماليكه] زهاء ستة آلاف . ومنهم من انتقل إلى تقدمه الألوف وإمرة المئين ، وكانوا جميعاً عنده كبنيه بل أعز من بنيه " . أبرزها : أن هولاًكو ضمن على بركة بنصيبه من غنائم فتوحه وقتل رسله الموفدين إليه لتحصيله مخالفا لما تقر به شرائع المغول ، وإسلام بركة المبكر – فيما قبل توليه عرش البلاد – ونعيه على هولاًكو إعدام الخليفة العباسي وملوك المسلمين دون مشورة ، فاعتزال بركة وقطع اتصالاته بالقآن ، ثم خص مانكو قآن – بعده – هولاًكو ببلاد القوقاز وما جاورها خصماً من مملكة بركة خان – فنشبت فيما بينهما حرب أهلية استدعت طلب مخالفة كل منهما لآخر – من خارج قبائل المغول وتشكيلاتها – للتقوي به في مقابلة خصمه ، فكان التقارب فيما بين بركة والظاهر بيبرس والإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس ، وتبادل السفارات فيما بينهم ، مما يسر تزويد الظاهر بيبرس وكثير من السلاطين المتولين بعده بالرقيق الأبيض من سهوب وأواسط آسيا الصغرى . وتتابع وفود جماعات وفرسان القفجاق والإيلخانيين إليه بذويهم وممتلكاتهم أثناء المنازعات الحربية فيما بين هولاًكو وبركة خان . وتبديدهم ، 17 الله على أننا نلاحظ أن بعض هذه الشخصيات المغولية المندرجة في سلكي التنظيمين العسكري والإداري قد تولت مناصب مهمة كالسلطنة ، حيث تولي زين الدين كتيبغا المنصوري – كما مر – السلطنة إزاحة للناصر محمد بن قلاوون ، كما تولي السلطنة كذلك الظاهر ططر – وهذا وذاك من أصول مغولية صريحة . كما تولي نيابة السلطنة "سلار" ، وكان ذا تأثير وسطوة استبد بهما بأمور الدولة في عهدي الناصر محمد بن قلاوون والمظفر بيبرس الجاشنكير ، وكشفت مصادرة أملاكه بعد أن قتله الناصر محمد بن قلاوون صبراً عن اكتنازه لثروة هائلة – عينا ونقداً – وإليه ينسب القميص الساري واسع الأكمام ، وتنقلت به الأحوال إلى أن سجن ومات في محبسه مطعوناً ، فاتصل شاهين – هذا – بعد موته بأحد التتر البارزين آنذاك ، وأتابك الأشرف برسباي – بعده – وقد أشارت المصادر إلى أنه كان مستخفاً بالجراكسة ، وعنده جنكز خان بمنزلة الخضر عليه السلام . فعين بوساطته حاجباً بالقدس الشريف ، وشد ديوان كنيسة القيامة أحياناً ، لكن قضى بقية حياته – بعد مقتل الناصر فرج – طرخانا ، بينما أمر ابنه غرس الدين خليل – رغم أن الأب لم يُغادر الجندية طوال حياته – وتولى عدة مناصب وولايات ، ونظر دار الضرب وأمير حاج المحمل سنة ٨٤٠ هـ ، كما كان ابنه عبد الباسط من كبار المؤرخين وله مؤلفات متعددة في تاريخ الأنبياء – "تاريخ الأنبياء الأكابر وبيان أولي العزم منهم" – والسيرة النبوية – "غاية السؤل في سيرة الرسول ﷺ" – والتاريخ العام – "نيل الأمل بذيل الدول" – وتاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي "نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين" ، و "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" ، و "المجمع المفنن بالمعجم المعنون" – ، فضلاً عن بعض المختصرات في العلوم العقلية والنقلية. حيث قاومهم نائب السلطنة سلار وكان في القلب في المرتين الأولى والثانية في السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون ، ولما استدعاه الناصر محمد بن قلاوون – من نيابة الشوبك – إلى مصر في سلطنته الثالثة ، وقد نصحه بعض رفقته بالفرار إلى الإيلخانيين لم يستجب لنصحهم وأقدم على السلطان في جماعة قليلة من مماليكه وهو يعلم – علم اليقين – أن في إقدامه عليه زهاب مهجته لتضييقه على الناصر مع الجاشنكير في سلطنته الثانية ، كما أن العادل كتيبغا – قنع بعد خلعِه من السلطنة بتولي إحدى النيابات صر خد ، على حين كان المستدعي لمنكوتر بن هولاًكو وللمغول – في ملك أبغا – سنقر الأشقر في معاندته للمنصور قلاوون في الشام " ليكون الشغل بهم عنه " ؛ بل التجأ قبحق وقر استقر إلى أبي سعيد بهادر خان في تخوفهما من الناصر محمد بن قلاوون – بعد أن بان لهما شروعه في الغدر

بهما وقد ساعده في استرداد ملكه - وعبثاً حاول الناصر اغتيالهما بالفيداوية - حانثا في يمين مهادنته لأبي سعيد بهادر خان ،
، وكان من شروطها تأمينهما